**مجلس النوّاب منذ 1975 إلى نوّاب اليوم!**

22-03-2024 | 00:00 **المصدر**: "النهار"

**الدكتور طوني عطاالله**

بين مجلس نواب الأمس ونواب اليوم بون شاسع. ليس وحده الزمن تغيّر وبدّل الأسماء، بل التركيبة الاجتماعية الذهنية والثقافية هي أيضاً، فضلاً عن التعاطي النيابي. يفتقر نواب اليوم إلى قامات نيابية وتشريعية، ما خلا استثناءات، وإلى التزام بالقضايا الوطنية، وسط غياب بوصلة العمل البرلماني.  
  
تأتي مواقف نيابية نادرة كاعتصام النقيب ملحم خلف والنائبة نجاة صليبا داخل البرلمان لتذكّرنا بواجب النواب في احترام الأصول البرلمانية والدستورية ومنها الاستحقاقات حيث لا شرعية بدونها. ملحم خلف ونجاة صليبا يمثلان بموقفهما استعادة نموذجية للعمل البرلماني وللحياة النيابية اللذين يفتقدهما المجلس منذ سنوات وتترجم لا بمواقف كلامية فقط، بل بتصميم مقرون بالأفعال، خلافاً لمواقف أخرى تكتفي برفض التعطيل وتحريف الدستور.  
  
يعيش لبنان اليوم تفريغاً متعمداً يدفعنا إلى المقارنة واستخلاص الدروس. بالعودة إلى التاريخ البرلماني: كيف تواصلت الأوضاع الدستورية في مراحل الأزمات؟ وكيف أمكن تجنيب لبنان أزمة التعطيل لكونه بلداً له دستور يضمن تداول السلطة.  
  
يجد الباحث في الحياة البرلمانية منذ 1975 حالات نموذجية مليئة بالعبر. والمقارنة مدخل لدراسة التقصير والتعجيز التي بلغها مجلس ونواب يساهمون في تفريغ السلطة، رغم أن بعضهم يمثلون شريحة شبابية لكنهم بمجموعهم عاجزون وليسوا على مستوى المرحلة. نتوقف عند حدثين في تاريخنا البرلماني.  
  
**جلسة 28/8/2004**اجتمع مجلس الوزراء في 28 آب 2004 في جلسة مفاجئة استغرقت عشر دقائق كانت كافية للتصويت على اقتراح مشروع قانون دستوري يقضي بتعديل المادة 49 من الدستور التي تحدد ولاية رئيس الجمهورية بست سنوات غير قابلة للتجديد. أُضيفت فقرة تمدّد الولاية ثلاث سنوات. فور إقرار التعديل أعلن أربعة وزراء، ممّن اعترضوا على التعديل، تقديم استقالاتهم وهم: مروان حماده، غازي العريضي، عبد الله فرحات وفارس بويز.  
  
عكس مشروع التمديد صورة عدم استقرار التشريع الدستوري. وفيما كان أربعة مرشحين، تتوفر فيهم كل مؤهلات الترشيح، سبق أن أعلنوا ترشّحهم للرئاسة وهم: بطرس حرب وروبير غانم ومخايل ضاهر ونائلة معوض. كانوا بدأوا حملاتهم الانتخابية في انتظار افتتاح المهلة الدستورية للانتخاب في 23 أيلول 2004.  
  
في المجلس النيابي، صوّت 96 نائباً على تعديل في جلسة استثنائية في 3 أيلول 2004 برفع الأيدي. في المقابل عارض التعديل 29 نائباً تصدّرت أسماؤهم "لائحة الشرف" نشرتها الصحافة. وهناك 14 نائباً فاتتهم هذه الوقفة رغم أنه سبق لهم مواقف معارضة للتمديد لكنهم لحظة التصويت بدّلوا مواقفهم وطعنوا بشرعيتهم، ويبقى عددهم الشاهد على ضغوط الجهاز الأمني الاستخباراتي اللبناني-السوري المشترك.  
  
مثّل معارضو التمديد أقلية نيابية، لكنها متجاوبة مع أكثرية شعبية عبّر عنها بيان للمفتي محمد رشيد قباني والشيخ عبد الأمير قبلان تضمّن فقرة، اعتبرت تجاوباً من المرجعين مع موقف البطريرك الماروني الكاردينال مار نصرالله بطرس صفير الرافض لتعديل الدستور، إذ شددا على "احترام الدستور"، مما أظهر إجماعاً لبنانياً لدى المراجع الدينية لمختلف الطوائف على الحفاظ على الدستور والنظام الديموقراطي وتداول السلطة.  
  
أسماء النواب على "لائحة الشرف": وليد جنبلاط، مروان حماده، فارس بويز، بطرس حرب، نسيب لحود، باسم السبع، صلاح حنين، هنري حلو، مخايل ضاهر، نايلة معوض، فؤاد السعد، أكرم شهيّب، جورج ديب نعمة، إيلي عون، أنطوان غانم، بيار الجميّل، فارس سعيد، غازي العريضي، عبد الله فرحات، أنطوان أندراوس، منصور البون، مصباح الأحدب، نعمة طعمة، نبيل البستاني، محمد الحجار، أيمن شقير، أحمد فتفت، غطاس خوري، علاء الدين ترّو.  
  
**جلسة 25/10/1975: نحن باقون**نموذج آخر عن التعاطي النيابي: تُعدّ جلسة 25/10/1975 تاريخاً عريقاً في حياة لبنان البرلمانية، جاءت رداً على التحديات التي تعرضت لها السلطة التشريعية. رفض نواب قبول التحدي بعد ورود معلومات الى المجلس مفادها أن أعضاء السلطة التشريعية الموجودين فيه سيتعرضون لهجوم من مسلحي الميليشيات. اعتبروا أن للمجلس حرمة تحتّم عليهم البقاء والقيام بمبادرة لوقف النزف لأن "حياة النواب ليست أغلى من حياة الناس". ماذا حدث في التاريخ المذكور وكيف روته "النهار" في 26/10/1975؟ نقتطف الآتي:  
  
"لم تنفع نداءات شريف الأخوي من إذاعة لبنان إصرار نواب على عقد جلسة مناقشة عامة (...) مكتملة النصاب. لم يحضر سوى 46 نائباً (كان عدد النواب آنذاك 99) غامروا في الوصول... وكأن يداً سحرية ألهبت كل الجبهات داخل العاصمة، وحول المجلس بالذات لإعطاء النواب المترددين عذراً: الطريق غير سالكة وغير آمنة!  
  
**هجوم من الفريقين**برغم ذلك وافق النواب الحاضرون على اقتراح العميد ريمون إده الانتظار ليكتمل النصاب. كاد الاقتراح ينجح لولا اتصال هاتفي قال رئيس المجلس كامل الأسعد إن وزير الداخلية الرئيس كميل شمعون أجراه معه وأبلغه أن معلومات مفادها أن المجلس سيتعرّض لهجوم من الفريقين وأن الحشود بدأت. وقد استدعى الأسعد النواب الى مكتبه وأبلغهم ذلك فغادر عدد منهم المجلس وبقي الآخرون رافضين قبول التحدي للنواب ولحرمة المجلس.  
  
منذ أن بدأ النواب يتوافدون، وصل على التوالي الرئيس كامل الأسعد والنواب: حسين منصور، أنور الصباح، فؤاد لحود، العميد ريمون إده، نديم نعيم، عبده عويدات، مخايل الضاهر، نديم سالم، بطرس حرب، سليمان العلي، جوزف سكاف، حميد دكروب، منير أبو فاضل، رفيق شاهين، عبد اللطيف الزين، ميشال ساسين، نصري معلوف، الرئيس صبري حمادة، خاتشيك بابكيان، ملكون أبليغتيان، انترانيك مانوكيان، شفيق بدر، ألبير مخيبر، طلال المرعبي، رائف سمارة، الرئيس صائب سلام، جميل كبي، الرئيس رشيد الصلح، علي الخليل، فؤاد نفاع، بيار الجميّل، الأب سمعان الدويهي ورينيه معوّض. ومن الحكومة حضر الرئيس رشيد كرامي والوزير غسان تويني.  
  
رنّ الجرس ودخل الرئيس الأسعد القاعة (...) وقال: لم يكتمل النصاب حتى الآن. في الجلسة السابقة طرحت قضية متابعة المناقشة في جلسة تعقد هذا الصباح. وكان الزميل الدكتور ألبير مخيبر طلب أن يطرح استجوابه ليسمع جواب الحكومة. ورفعت يومها الجلسة على أن تعقد أخرى مكتملة النصاب. من أجل ذلك جئنا اليوم. ونحن ننتظر النصاب. فإما أن نبحث في المواضيع العامة في انتظار اكتمال النصاب أو نرفع الجلسة ونحدد موعداً لها في ما بعد.  
  
**إدّه يقترح الانتظار**ريمون إدّه: بما أن النصاب غير مكتمل، فإنني اقترح الانتظار حتى يكتمل لأنه لا يجوز ألا يجتمع المجلس في هذه الظروف. وإذا لم يأت بعض الزملاء حتى الآن فربما منعتهم حالة الأمن من ذلك على رغم رغبتهم في الحضور.  
  
بطرس حرب: أؤيّد اقتراح العميد إده، بمعنى أنه إذا طلب إلينا الاعتصام في المجلس حتى يكتمل النصاب لمناقشة الاستجواب فنحن مستعدون.  
  
**بقاء نواب وصحافيين**وظل الرئيس كرامي في ركن من القاعة مع النائبين الدويهي ومعوض، وسُمع يقول في مرارة: بدهم يحرقوني... شو أنا اللي عملت أول مخيم تدريب وميليشيات وبدأت الحوادث؟  
الرئيس سلام: كل ما يجري مؤامرات (...) تتناول [#مجلس النواب](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d9%85%d8%ac%d9%84%d8%b3+%d8%a7%d9%84%d9%86%d9%88%d8%a7%d8%a8) وهيئة الحوار وكل الأمور. إن كل ما نسعى إليه يفرض علينا أن نردد الآية الكريمة كما وردت في الإنجيل: "إن لم يبن ربّ البيت فعبثاً يبني البناؤون".  
  
أما العميد إده والنواب عبد اللطيف الزين وميشال ساسين ونديم نعيم وبطرس حرب وحسين الحسيني وسليمان العلي وطلال المرعبي وعبده عويدات وألبير مخيبر ورشيد الصلح فبقوا في القاعة. ثم جرى بين العميد إده والصحافيين الحوار الآتي:  
صحافي: قالوا في هجوم على المجلس.  
  
إأده: نحن باقون هنا.  
سليمان العلي: يا عميد أما لهذا الليل من آخر؟  
إده: قالوا في هجوم، ونحن رفضنا نروح وعلى المسؤولين عن اأمن أن يحافظوا على الأمن خارج المجلس، أما في داخل المجلس فذلك واجب رئاسة المجلس.  
ضاهر: حياة النواب ليست أغلى من حياة الناس.  
  
إده: لا أحد يموت إلا في وقته.  
ميشال ساسين: لأنو في هجوم ما لازم نروح. لو بتنفدى فينا نحن نقبل.  
ووجه الأسعد دعوة الى النواب لحضور جلسة اليوم التالي للبحث في استجواب مخيبر.  
  
**الديموقراطية تفرض نفسها**لم يكن البرلمان في وضع يسمح بتقرير مصير البلد بعد تحوّل لبنان ساحة للصراعات. ورغم ذلك، بقيت مظاهر الديموقراطية سائدة حتى بعد دخول البلاد الحرب، وجرى التمسّك بالأصول البرلمانية. كلام بعض النواب وتصميمهم على البقاء في المجلس والدفاع كتأكيد العميد إده: "نحن باقون هون" و"لا أحد يموت إلا في وقته" وإصرار النائب ساسين: "لأنو في هجوم ما لازم نروح. لو بتنفدى فينا نحن نقبل"، ... هكذا في أحلك ظروف الأزمة استطاع المجلس فرض نفسه في البلد الصغير.  
  
يختصر بشارة منسى المستشار القانوني السابق في مجلس النواب عمل المجلس ومثابرته في تلك المرحلة وطيلة الحروب، يقول: "خلال ست عشرة سنة من الحروب لم تمض فترة من الزمن إلا اجتمع المجلس في جلسات قانونية لإقرار قوانين متعددة منها جلسة لانتخاب رئيس المجلس واللجان، واجتماعات دورية للتداول في شؤون البلاد وشجونها برئاسة رئيس المجلس وحضور ممثلين عن جميع التيارات".  
  
بدل أن تكون الندوة البرلمانية اليوم مجالاً للحوار والنقاش والتشريع والمساءلة تراها متقاعسة. إن تحديد موعد لجلسة انتخاب رئيس الجمهورية واشتراط النصاب هو أمر جيد إن كان المقصود مثابرة المجلس على عمله. أما إن كان الهدف مواصلة مناورات المخادعة والفراغ فمن البديهي أن تصدر أصوات تتهم النواب المتقاعسين بخرق الدستور والخيانة العظمى.